



## مِنْ كَسْرِ الْأَلَمِ إِلَى جَبْرِ التَّوْجِيدِ محمد بن أحمد الشلاعي

الرُّقْبَةُ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا الرُّقْبَةُ! كَتَبَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ الشِّفَاءِ، وَدَوَاءً مِنْ أَنْوَاعِ الدَّوَاءِ، وَسَبِيلًا مِنْ سُبُلِ الْعِلَاجِ. وَمَا زَالَ النَّاسُ -عَرَبُهُمْ وَعَجَمُهُمْ- مُؤَمِّلِيهِمْ وَكَافِرِيهِمْ- يَنْدَاوُونَ بِهَا إِنْ خَلَا كَانَتْ أَوْ حَرَامًا، وَإِنْ كَانَتْ أَدْوِيَةً فَشُرُوعًا أَوْ أَدْوِيَةً فَمَنْعَةً.

وَتَعَلَّقَى النَّاسُ بِالْعَافِيَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالصَّحَّةِ، وَدَفَعُ الضَّرَّ وَدَرَأَ الْأَلَمَ، جَعَلَ شَوْقَهَا رَائِبًا وَبِضَاعَتَهَا مُشَاعَةً، وَطَلَبَهَا عَدَدًا كَبِيرًا. وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ أَنْ صَيِّطَ هَذَا الدَّوَاءَ، وَحَدَّدَ حُدُودَهُ، وَبَسَّرَ نَافِعَهُ وَمَنَعَ ضَارَّهُ، وَجَعَلَ الْمَرِيضَ تَعَلُّقَهُ بِرَبِّهِ، وَرَبَطَ قَلْبَهُ بِمِيثَاقِي مُحْكَمٍ حَتَّى لَا يَضِيعَ أَصْلُ التَّوْجِيدِ، وَيَتَشَتَّتَ أَمْرُ التَّوَكُّلِ وَيَضِيعَ مِيزَانُ الشَّرِيعَةِ؛ فَسَرَعَ الرَّقْبَةُ بِصَوَابِ شَرْعِيَّةٍ وَقَوَاعِدِ سَلِيمَةٍ؛ قَالَ □: (أَعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرَّقِي مَا لَمْ تُحَنَّ شِرْكًَا) [رَوَاهُ مُسْلِمٌ (2200)].

وَمَنْعَ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهَا وَانْحِدَابِهِ إِلَى الرُّقَامَةِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: (وَإِذَا مَرِضْتَ فَهَوِّ بِسُفِينِ) [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: 80]، وَجَعَلَهَا مِنْ كَلَامِهِ وَمِنْ آيَاتِ كِتَابِهِ، وَمِنْ جَوَامِعِ سُنَنِ النَّبِيِّ □، وَمِنْ الْأَدْعِيَةِ الْمَشْرُوعَةِ؛ مَعَ قُوَّةِ التَّوَكُّلِ وَشِدَّةِ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَسَدِّ ذَرِيَعَةِ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِهِ وَالتَّمَسُّكِ بِسِوَاهُ؛ قَالَ □: (مَنْ تَعَلَّقَ تَعِيمَةً فَلَا أْتَمَّ اللَّهُ لَهُ) [رَوَاهُ أَحْمَدُ (17404)].  
فَالْمَقْصُودُ بِالرَّقْبَةِ هُوَ الْإِسْتِشْفَاءُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَتَوْجِيدِهِ، وَكَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ: (مَعْنَى أَعْظَمِ عِلَاجَاتِ الْمَرِيضِ: فِعْلُ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، وَالذِّكْرُ، وَالذُّعَاءُ، وَالتَّصَرُّعُ وَالْإِنْبِهَالُ إِلَى اللَّهِ وَالتَّوْبَةُ؛ فَلِهَذَا الْأَمُورِ تَأْتِي فِي دَفْعِ الْعِلَلِ وَحُصُولِ الشِّفَاءِ أَعْظَمُ مِنْ تَأْثِيرِ الْأَدْوِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَلَكِنْ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ وَقَبُولِهَا) [زَادَ الْمَعَادُ (4/180)].

وَمَنْعَ تَعَاطِي السِّحْرِ صَرَفًا وَنَسْرًا، وَسَدِّ بَابِ الْعِزَافَةِ وَالْكَهَانَةِ، وَأَعْلَقَ كُلَّ الْأَبْوَابِ الَّتِي تُصْرِفُ النَّاسَ عَنْ رَبِّهِمْ وَتَعَلَّقَى قُلُوبَهُمْ بِغَيْرِهِ. وَلَا زَالَ أَهْلُ التَّقْوَى عَلَى الْعَهْدِ، وَأَهْلُ الْبِرِّ عَلَى الْجَادَةِ؛ فَأَهْلُ الْعِلْمِ يُزَمُّونَ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِهِ وَشَيْئَ رَسُولِهِ □، وَكَمَا تَوَكَّلُوا عَلَيْهِمْ وَشِدَّةَ عَزْمِهِمْ وَحَرَمِهِمْ، وَالنَّاسُ يَسْتَرْفِقُونَ طَلَبًا لِلدَّوَاءِ؛ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (تَدَاوُوا عِبَادَ اللَّهِ، وَلَا تَتَدَاوُوا بِحِرَامٍ) [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (3874)].

وَالْمَرِيضُ يَكْسِرُهُ الْأَلَمُ وَيُضْعِفُهُ السَّهْمُ، فَيَضْرِبُ بِأَجْنًا عَنِ الْخَلِصِ مَا أَفْكَنَهُ؛ وَجِبْنَ يَقَعُ عَلَى الرَّاقِي الْحَكِيمِ، وَالْأَمِينِ النَّاصِحِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ وَفَتَحَ عَلَيْهِ فِي نَفْعِ إِخْوَانِهِ، فَقَبِلَ الرَّقْبَةَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ الْمَرِيضُ بِالنَّصِيحِ وَالْإِنشَادِ، وَيَجْعَلَ كُلَّ مَا يَخْضُلُ لَهُ مِنْ دَاءٍ، أَوْ يَكْتُبُ لَهُ مِنْ شِفَاءٍ، إِنَّمَا يَخْضُلُ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَدَّةِ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا مَنَّةَ فِيهِ لِأَحَدٍ، وَيُعْلِمُهُ أَنَّ فِي تَفَامِ تَوَكُّلِهِ عَلَى الرَّؤُوفِ الْوُدُودِ الرَّحْمَنِ مَا يَدْفَعُ عَنْهُ جَهْدَهُ وَيَذْهَبُ شِدَّتَهُ.  
فَالْمَعَادُ كُلُّهُ عَلَى قُوَّةِ الْقَلْبِ بِالتَّوَكُّلِ، إِذْ يُفَرِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ أَنَّ: (لِقُوَّةِ الْقَلْبِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي دَفْعِ الْأَمْرَاضِ، بَلْ فَدَّ لَا يَنْبُثُ مَعَهَا الْمَرَضُ) [إِعَانَةُ الْأَهْلِيَّانِ (1/25)].

فَتَخْضُلُ الْعَافِيَةَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَتَحُلُّ الْبَرَكَاتِ بِفَضْلِ اللَّهِ. وَلَكِنَّ مِنْ تَنَكُّبِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَاسْتَبْدَالِ سَبِيلِ الْمُتَّقِينَ، وَتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِغَيْرِ الْمُنْعَمِ الْمُنْفَعِ مِنَ الرِّقَامَةِ وَالْمُسْتَرْقِينَ، فَدَّ يَخْضُلُ لَهُمْ مَا أَرَادُوا مِنَ الدَّوَاءِ الْيَدْنِيِّ، لَكِنْ يَسْكُنُ فِي قُلُوبِهِمُ الدَّاءُ الْغَضَالُ الَّذِي هُوَ مَقْدُ التَّوَكُّلِ وَصَعْفُ الْإِيمَانِ، وَقَدْ يَنْعَدِمُ وَيَزَاحِمُهُ الشَّرْكُ وَالتَّعَلُّقُ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَهَذَا مُشَاهِدٌ مُلْمُوسٌ.

فَبِعِصْرِ الرِّقَامَةِ عَرَّهَ مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَطَنَّ نَفْسَهُ صَاحِبَ كِرَامَةٍ، وَإِمَامَ هِدَايَةٍ، وَذَا مَكَانَةٍ زَائِدَةٍ عَنْ تَقِيَّةِ عِبَادِ اللَّهِ. وَبِعِصْرِ الْمُسْتَرْقِينَ - وَتَحْتِ وَطَاءِ الْأَلَمِ وَحُبِّ السَّلَامَةِ وَنِسْذَانِ الْعَافِيَةِ- فَهَدَى تَوَكُّلَهُ وَصَيَّغَ تَوْجِيدَهُ وَسَلَبَ عَقِيدَتَهُ، بِأَمْرِ لَنْ يَتِمَّ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ؛ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكُلَّ إِلَيْهِ) [رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (2072) وَأَحْمَدُ].

وَمَا كَثُرَ هَوْلَاءُ إِلَّا جِبْنَ صَعْفِ التَّوْجِيدِ، وَكَثُرَتْ الْبِدْعُ، وَزَاحَمَتِ الْأَهْوَاءُ أَصْلَ الدِّينِ وَالْعَقِيدَةَ. وَالْفِرَاقُ وَالسُّنَّةُ لَا يَمْنَعَانِ التَّدَاوِيَّ وَلَا يَحْرِمَانِ الْعِلَاجَ، بَلْ سَرَعَا مَا يَدْفَعُ الدَّاءَ وَيَخْضُلُ بِهِ الشِّفَاءَ بِصَوَابِ قُوَّةٍ وَقَوَاعِدِ مَرْعِيَّةٍ تَصْبِطُ التَّدَاوِيَّ بِكُلِّ أَطْرَافِهِ.

فَمِنْ نَاحِيَةِ الدَّوَاءِ: (تَدَاوُوا عِبَادَ اللَّهِ، وَلَا تَتَدَاوُوا بِحِرَامٍ) [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ].

وَمِنْ نَاحِيَةِ الْإِمْتِدَاوِي: (سَبِّعُونَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ... هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفِقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].  
فَالتَّوَكُّلُ بِسِرِّ الدَّوَاءِ وَأَعْظَمُ أَرْكَانِهِ، لَا يَمْنَعُ التَّدَاوِيَّ وَلَا يَنْقُضُهُ، بَلْ يَرْمَعُهُ مِنْ مُجَرَّدِ سَبِّ إِلَى عِبَادَةٍ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ.

وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمَدَاوِي: (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهَلَهُ مَنْ جَهَلَهُ) [رَوَاهُ أَحْمَدُ (3578)].  
فَبَدَّلَ الشَّبَابَ الْمَشْرُوعَ مَعَ كَمَالِ التَّوَكُّلِ هُوَ أَصْلُ الشِّفَاءِ.

وَهَذَا وَفَقَّهُ مَعَ كُلِّ طَبِيبٍ وَمُعَالِجٍ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ؛ فَالتَّقْوَى رَابِطُ الْخَيْرِ وَصِمَامُ الْأَمَانِ وَمِيزَانُ الْإِخْلَاصِ. كُنْ وَزِدَةً تَمُوحُ إِيْمَانًا وَتَفَاوُلًا وَلِيْبًا، وَأَرْزَقِ الْأَمَلَ وَالتَّوْجِيدَ وَالتَّعَلُّقَ بِاللَّهِ؛ فَالتَّوَكُّلُ الْحَقِيقِيُّ مَنْ يُدَاوِي الرُّوحَ قَبْلَ الْبَدَنِ، وَكَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: (إِنَّ الطَّبِيبَ إِذَا كَانَ عَارِفًا بِمَرَضِهِ، وَبِدَوَاءِ قَلْبِي وَوَحَايِي، فَإِنَّهُ يُعَالِجُ بِهِ) [زَادَ الْمَعَادُ (4/181)]; لِئَكُونَ الْمَقْصِدُ الْأَسْمَى مَا قَالَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ) [سُورَةُ فَصَّلَتْ: 44].

فَالرُّقِيَّةُ لَيْسَتْ "تَمَاتِمَ" أَوْ طُقُوسٍ، بَلْ هِيَ عِبَادَةٌ تُمَارَسُ بِوَعْيٍ وَتَوْجِيدٍ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَالِدُّعَاءِ الْمَشْرُوعِ.  
وَالْحَدْفُ الْأَسْمَى لَيْسَ فَقَطْ زَوَالِ الْأَلَمِ، بَلْ انْتِقَالُ الْعَبْدِ مِنْ "كَسْرِ الْأَلَمِ" إِلَى "جَبْرِ التَّوْحِيدِ"، فَيَخْرُجُ مِنْ مِحْنَةِ الْمَرَضِ وَهُوَ فِي تَمَامِ تَعَلُّقِهِ  
بِاللَّهِ.

اللَّهُمَّ اشْفِ مَرْضَانَا وَمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ.

مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَالِمِ السَّلَاعِ